المثل الأعلى فى السينما

حياة عبقرية متألمة

اللحن الذى لم يتم

Symphonie inachevée

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

قد يكون الاقبال على هذا الفلم الناطق بالألمانية ضعيفاً ، لأن مخرجه لم يترك مجالاً للمادة تعبث بالفن ، وللمصلحة تتغلب على العاطفة ، وللعبث تسطو يداه على « مثل أعلى » ألفته عبقرية — أقامت فى الأرض عمرها — بمداد روحها ودماء قلبها . على أن هــذه الحياة قد فسدت ، ولم يبق خالصاً ظاهرها ولا باطنها ، فالقوم قد لجوا من صراع المادة المستحوذة عليهم ، وهم الذين تركوا لها مجال التسيطر ، تفر المادة منهم ، وهم إليها يفرون ! وقد آل بهم هذا الصراع الدائم إلى أن يعموا عن جوهر الحياة الذى وضعته الحياة على أبنائها يوم كانت ، فهم من صراع إلى صراع ، ومن نزاع إلى نزاع ، لا ترتاح لهم جنوب ولا تستقر مضاجع . أحلامهم طافحة بالعراك كيقظاتهم ، وليت شعرى لِمَ هذا العراك ، وليت فيه هذا النزوع إلى محجة الحياة ، فهم مضطرون إلى تهــدئة أعصابهم المجنونة وقلوبهم الثائرة باللهو واللعب ، يطلبون اللهو متى انتهوا من جدهم ، ويتوخون العبث متى خرجوا من دائرة عملهم . لهو كثير وجد كثير تذوب بينهما حياة شفافة فى سبيل الحياة البهيمية ! وقد شعرت السينما بتعب الانسانية وأحست بضناها ، فأحبت أن تسعفها فى جهادها ، وتريها ومضــات تلمع وتخبو فى جنبات « الشاشة البيضاء » . فهى تتشبث بالألحان والحسان ومظاهر الخيال التى لا ينطبق على حقيقة ، لتفرج عن هذه الانسانية المنكوبة ، ولكنه دواء من ينقش الشوكة بشوكة ، ويُنير الشمعة سبيلها بذوبها . لأن مثل هذه الألحان المضطربة والنجوم الساطعة الخابية سرعان ما تفقد تأثيرها لأنها لم تصب هدفاً معلوماً ولم تطرق نهجاً مرسوماً

قد تكون السينما للأدب حليفة وقد تكون عدوة ، لأنها تريد أن تهضم « الأدب » وتبلع زاد العقل لتحمله للناظر عن طريق العين ، فهى مساعدة للأدب على خلق « المثل الأعلى » ؛ وباعثة فى الأرواح مختلف الأشواق والحنين إلى ربوع « المثل الأعلى » ، ولــكن من المخرجين من لا يبالى بهذا المثل ولا يسمع صوته ، لأنه يريد أن يقبض على عيون الناس وجيوبهم ، وهذا هو الأديب التاجر ، ومنهم من يؤمن بهذا المثل ، ولكنه لا يجد الفرصة سانحة لمثل هــذا النوع . فهو يُلق الومضة إثر الومضة لأنه لا يقدر أن يتبرأ من كل ما يجيش فى صدره ، ولــكن أكثر بضاعته بضاعة يرضى بها رؤساءه . ورؤساؤه يعرضونها ليكسبوا بها جنوداً ونقوداً ، وهــذا هو البائس المدارى ، ومنهم من بلغ إيمانه بالمثل الأعلى مبلغاً عظيماً ، يخرج من الروايات ما تؤمن به روحه ، ويخلق فيها شيئاً جديداً متدفقاً لأنه يعمل بقلبه لا بيده ، وهذا هو من يشفق على هذه الانسانية ، ويريد أن يحملها على أجنحة صوره وألحانه — ولو ساعة — إلى عالم المثــل الأعلى ؛ يريها ما هنــالك من نور طافح وأمل خانق . والجالس إلى أفلام هذا المخرج ليجد نفسه وقد انسلخت عنه بغير شعور منه إلى عالم شعرى بعيد ، ما كان حاملة إليه إلا فكرة سامية نقلتها أشعة العين إلى القلب فهام واستُهيم . . . إن مثل هذا المخرج يعطى أكثر مما يأخذ ، ويهمه من الناس قلوبهم قبل جيوبهم

مرّت بى هذه الخطرات وازدحمت فى نفسى يوم رنت عيناى وخشع قلبى لهذا (اللحن الذى لم يتم) أراه للمرة الثانية ، وقد تجردت روحى عني لتتسامى فى هذا اللحن ما شاء لها التسامى

— ٢ —

هذا اللحن أو هــذا (الفيلم) ترجمة دقيقة لفصل من حياة « شوبير » الموسيقى النمساوى الذى لم تفض عليه الحياة أجله ،

وقد يحلم المحروم باليسر والهنى ... كذلك حلم الأرض بالصيف واليسر

فلما تفضى الليــــل يحدو لواعجى

وذكرى طيور الصيف تهزج فى صدرى

أخذت نصيباً من جَدَى الفجر وافراً

فنهنهت آلامى وأرخيت من صبرى

وأملت للدنيا صباحاً مؤجلا ... سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر

فكل صباح رمزه ومثاله ... ووعد به يحدو إلى الزمن النضر

نسر بنعماه وإن لم تكن لنا ... وننشده فيما يكون من الدهر

عبد الرحمن شكرى

(١٧٩٧ — ١٨٢٨) لكنه فصل مشحون بكل ما يتمثله فكر عن فنان . وسأعرض عليك هذا الفصل لتتلمس فيه هذا المثل الأعلى الذي نجح المخرج في إظهاره . وإنما هو حياة فنان يشق طريقه إلى المجد بأوتار قيثارته وأنامل «بيانه» البيضاء ، وتاريخ صراع هذا العبقري للمصادفات والأقدار التي انتصر عليها

نحن الآن في منزل « رهون » تجتمع فيه البلة الثمينة بجوار تمثال « نابوليون » والقيثارة الجريح بقرب الحسون في قفصه « رهين المحبسين ! » تتسلم هذه الأشياء فتاة جميلة ، لامعة العينين ، لا تقدر قيمة الأشياء إلا بحسب قائمة عندها

يطل على النافذة فتى تكاد تيبس عضلات وجهه المتصلب ، على عينيه نظارتان ، عد قيثارته التي طالما ملأت لياليه ألحاناً ، وأشبعت وحدته أماناً ، يقدمها بيد مرتعشة ليرهنها ، يجد ثمن الرهن ضئيلاً فيراجع الفتاة الجالسة فتجيبه : هذا هو الثمن المحدد ؛ ولكن صوتاً يهيب بها في داخلها ، وإنما هو صوت الحنان على الفن الذبيح .. . فتزيد الثمن وتدعو الله أن يذهل والدها عما زادت ، ليتسنى لصاحب القيثارة أن ينتفع ببدل قيثارته . فيأخذ الثمن ويحصيه بعد خروجه فيجده أكثر مما قالت ، فيعود بقلبه البسيط ، فيظفر بالفتاة خارجة وتخبره أنها شذت معه إكراماً لفنه ؛ وإذ يسمع — شوبير — ألحاناً تأتي من بعيد فينطلق وراءها وهي تقودها إليه عاطفة غريبة ، فتسأله سر ابتهاجه بهذه الألحان ، فينبئها أنها ألحانه ترددها الصبايا الحانيات على الماء

— إن ألحانك ترددها « ڤينا » ؟

— أجل ! ترددها « ڤينا »

— أنت سعيد إذاً يا شوبير ! ولا بد أنك غني

— أما الغنى فلا

— ولماذا تثابر إذن على التلحين ؟

— وما يكون عملي شوبير في الوجود إذا انصرف عن التلحين ؟

— وهذه الأبيات الرقيقة التي أسمعها أهي من « جيته » ؟

— لا !. ومن هو جيته ؟ إنني لم أسمع به قبل اليوم

— إنها من نظم صديقي « مولر »

— عجيب ، ألا تعرف « جيته » ؟

وهنا يعودان على آثارهما فتثب إلى غرفتها وتقذف له على طريقه بديوان (لجيته) فيأخذ الكتاب ، ويلتهم ما في الكتاب ويتلو ذاهلا غافلا ؛ يخطر في الشوارع وعيناه شاخصتان في الكتاب ، ويدخل قاعة الدرس وطلابه في حرب يطلنها بعضهم على بعض ، سلاحها الأوراق والكتب وإهراق المداد ! وقد تصيب دواة قبعته فتطير عن رأسه فلا يشعر : ولكنه لا يكاد يستقر في مكانه حتى تهدأ الجلبة وتقر الحركة ، فيعجبه هذا السكون ويشكر طلابه عليه ، فيبدأ درس الحساب ويكتب على اللوح الأسود بادئاً بجدول الضرب ، ولكن هذه اليد تتحرك بغير وعي وتنتقل بغير إرادة . لأن القلب الوسيقي الذي أطل عليه من وراء « جيته » قد استولى عليه ، فيده تسطر وقلبه يلحن ، وما هي إلا لحظة حتى كان الطلاب من ورائه يرددون اللحن الذي سطره ! وإذا بدرس الحساب يتحول إلى درس موسيقى ! فيسمع الرئيس الألحان شائعة في الفناء ، فيطرق غرفة « شوبير » فيجده لاهياً وطلابه بهذه الأغنية ، فيطلب إليه أن يهرع إلى مقابلته ، ولكن هذه المقابلة التي يتخيلها الناظر عثور جد وسوء طالع ، قد هيأت لشوبير أن يقابل « مدير الأوبرا » في « ڤينا » المعجب ببراعته ، وهو ينتظره في بهو الرئيس يحمل إليه دعوة إلى منزل الكونتس « دي رنسكي » ليعزف في إحدى سهراتها الموسيقية الحافلة التي تقيمها كل خميس وتجعل من منزلها ملتقى أرباب الفن وأنصاره . وجدير بمثل هذه المقابلة أن تفتح أمام « شوبير » مستقبلا زاهياً مضموناً . ولكن أنى له أن يغشى هذه الحفلة وليس عنده رداؤها . وقد طرق بيت الرهون فرده صاحبه خائباً ، لأنه لا يملك ما يفك به رهينة ، ولكن الفتاة الهائمة بفنه أعادت إليه رداءه وقبعته لتحقق له ظفره في هذه الليلة

كان بهو « الكونتس » يعج بالزائرين والزائرات ممن سما بأرواحهم الفن والموسيقى ؛ وفجأة دخل « شوبير » منتفخ الرداء ساطع الوجه ، يلبس غده بيده . ولكن نشوة السرور قد أذهلته عن أن ينزع (علامة الرهن) عن ظهر الرداء . فر وعيون القوم رانية إليه ، تتغامز عليه . فقبل يد الكونتس وحطم بخيط « العلامة » تمثالا عزيزاً عليق به ، ولكن الكونتس لم تزد إلا ترحيباً به

جاء دور « شوبير » ومرت أنامله على « البيان » يعزف أنشودة أبدعها لمثل هذه الساعة . وأودعها كل ما يختلج في صدره من أماني وأشجان . فترى القوم سكارى وما هم بسكارى ؛ فتدخل — خلال ذلك — الكونتة استركاز الفتاة الحسناء وهي متأخرة ، فتأخذ مقعدها وتصغي بروحها المرحة إلى هذه النغمات ، فتسأل فتاها فيجيب همساً : انه « شوبير » فلا تفهم .

فيكتب على صفحة مرآتها بعـد ذر « البودرة » أحرف « ش و ب ى ر » فلا تفهم ... وتنفخ على اسمه فيطير . ولـكن أوضاع جلوس شوبير على البيان تهيب بها إلى الضحك فتملك نفسها فلا تقدر ، فترسلها ضحكات عالية تنال من عزة « شوبير » فيرمقها شزراً ، ويطلق البيان بعنف ، ويهب من مقعده لا يملك نفسه الهتاجة ، فيدركه « مدير الأوبرا » فيجيبه بإباء وأنفة :

— أنا لست ممن يعزفون وهم يضحكون !

وانطلق وقد ترك فى المنزل ، زوبعة ، وصاحبة المنزل تقول للفتاة « ومما يؤسف له أن المقطوعة لا تبعث على الضحك »

تلك عزة الفن دعته فأجاب ، وهو يقدر أنه قاتل مستقبله ، وداع البؤس إلى ساحته ، ولـكن ما همه مستقبله وبقاء إذا كان الفن يحيا فى منزله مهاناً ويرضى بهوانه ؟ أليس هذا المثل يضرب لـكل فنان معنى العزة ويبعث فيه الـكبرياء ؟

خرج « شوبير » دامى القلب ، ولـكنه عنيف الثورة شديد النقمة على هـذه العادة التى حالت بينه وبين اتمام لحنه . . . آب إلى غرفته بأمانيه المهزومة كالقائد المنكسر يعود بفلول جيشه وأوسمته القديمة ، فألفى غادته الأولى فى انتظاره ، وهى لم تـكن لتحب أن تراه مقطباً عابساً ، جلس إلى البيان يعاود ذلك اللحن الطائر ، فلا يكاد يشرف على المهوى الذى تعالت فيه ضحكة الساخرة ، حتى يتمثل أن ضحكتها تملأ جو غرفته ، فيهب مذعوراً يسد أذنيه ، وكأن يداً سحرية تحول بينه وبين الانتقال إلى المهوى الثانى . وبعد محاولة غير مجدية غادر البيان والبيان يضحك ، وجدران الغرفة تضحك ، وهى فى قرارة ضميره تضحك . . .

كلفه هـذا الحادث كثيراً ، فقد أخرجوه من المدرسة ، وحرموه الخبز الذى يأكله ، فألحف الباقون فى الطلب ، ولج الأصدقاء فى الهرب . وشفعت له « فتاته ايمى » عنـد « مدير الأوبرا » ولـكن هذا قد قُدَّ قلبه من جماد !

ـ كن لطيفاً معه

ـ أنا لستُ بلطيف

ـ لا تهجر شوبير !

ـ إنه يستحق

ـ ولـكن اذكر أن « ڤينا » تترنم بأغانيه ، فأين أغانيك ؟

بمثل هـذه البساطة وهذه الحدة كانت تجادل « ايمى » مدير الأوبرا لاستمالته إلى معاضدة « شوبير » ، ولـكن العبقرية كتب عليها القـدر ألا تخط طريقها إلا بدماء القلب الجريح ، والشقاء الدائم ، فليمش « شوبير » على طريق العبقرية . . .

— ٣ —

طلب أحد الأمراء الموسرين فى « هونغريا » إلى شوبير أن يقدم عليه ليعلم فتاتيه الموسيقى ، فارتاح لهذا الطلب وأيقن أن الأمل طفق يبسم له ، فودع « ايمى » ووعدها بأن يكاتبها وسار وراء الأمل الجديد

دخل المنزل فاستقبله الوالد بابنتيه «ماريا وكارولين» . نظر شوبير فى وجه « كارولين » فأدرك أن هـذا الوجه هو وجه الساخرة ، فاربدّ وجهه وتقلصت شفتاه . ولـكنه هدأ نفسه وكظم غيظه . وغادر الوالد المـكان ، وعدت وراءه « ماريا » لأنها لا رغبة لها فى الموسيقى ، وخلا له ولها المـكان

قالت كارولين باسمة :

ـ أريد أن أعرفك ، لأنني جعلتُ درس الموسيقى سبباً !

ـ أتودين أن تسخرى منى أيضاً ؟

ـ لا ياشوبير ! أريد منك أن تغلق هذا البيان

فدنا شوبير من البيان وأغلقه بهدوء ، فضحكت كارولين وقالت :

ـ فى امكان الانسان أن يغلقه بدون ضوضاء ! قد شعرت بخطيئتى العظمى ، وانى لأرجو أن تصفح عنى . . .

ـ قد صفحتُ !

ـ إذاً سنبدأ غداً . . .

وفى اليوم الثانى كان « شوبير » يلقى على تلميذته قواعد فى الموسيقى وفى الايقاع ، ويبدى لها أن الايقاع هو حياة الموسيقى وأصل توازن ألحانها ؛ ويعرض عليها مقطوعة صغيرة له تتلوها بصوت عال ، فتتلو السطر الأول والثانى ثم يتعالى صوتها شادية مرنمة يتلاشى أمام نغماتها ونبراتها عزف البيان ولحن القيثار ، فيذهل شوبير وأى ذهول ! ويتصاغر أمام جلال هـذا اللحن المتناسق ؛ حتى انتهت من تلاوتها وجاءت على هـذه الكلمة « وهى مقطوعة مهداة إلى الفتاة ايمى » فثارت فى نفسها غيرة عميقة ، لأنها كانت تشعر بأن هـذا الفنان يجب أن يكون لها وحدها ، فطلبت إليه أن يقدم لها فى المرة الثانية من أغانيه مالا تشركها فيها امرأة ! ولـكن تلك الأغنية التى لم تكمل . . . ولـكن هذه الأغنية ظلت غير تامة لأنه لم يستطع أن يتمها

قالت له كارولين فى إحدى خلواتها :

ـ سمعت بأنك تختلط بعمالنا فى المزرعة فى جلسات طربهم وانى لأربأ بأستاذى أن ينشى هذه المجامع الساقطة

ولكن شوبير كان يستوحى الفن حيثما كان ، ويعتقد أن الفن يسكن فى الأكواخ ، وفى الجماعات المنحطة ، وفى التراب . وظل ينشاها كعادته ، حتى فجأته يوماً فى مجلس لهؤلاء « الفجريين » الذين تخذوا الحياة عزفاً وطرباً ، وقذفوا بهمومها من وراء ظهورهم . فجأته وهى ترتدى رداء « الفجريات » وعلى وجهها تطفو بهجتهن وسرورهن . فرقصت حتى بات المكان كله لا يتسع إلا لقدميها . ورقصت حتى أعيت ، ودنت منه تنشد مقطوعة رقيقة تدعو إلى الاستسلام الذى تولد « النبطة الكثيبة :

« قل انك تحبنى ؛ قل بدون انقطاع
قل انك تحبنى قليلاً . . .
كلماتك هذه تبعث النبطة فى نفسى ، والراحة فى قلبى
عيناك هما السبيل الجميل حيث يتوارى حلمى
قل انك تحبنى ، واكذب إذا وجب الكذب . . .
قل ذلك . . . لأنك — إذا سكتّ — تسلمنى إلى الموت »

وجدير بمثل هذه الأغنية الرقيقة أن تذهلها عن نفسها ، وأن تغيب أستاذها عن وعيه . فيلثم يدها ، والرويبة لا يزال هزيعها بين الأغصان . فغادرت المكان راكضة بين المروج الذهبية التى هى قبلة العشاق ، ومر بحى أصحاب الوحدة ، فتبعها ليرجع إليها نقابها

ـ قفى يا كارولين . . . لقد نسيت نقابك . ماعسى يقولون فى القصر اذا عرفوا ؟ لماذا جئت ؟

ـ ألا تعرف أنت حتى الآن . . عانقنى يا شوبير !

وهنا ضمتهما قبلة عميقة لم تشهدها إلا السماء . ولم تسمع همسها إلا الأزهار والأعشاب . . . أذهلتها عن نقابها الذى سقط على الأرض فمادت بغير نقاب

— ٤ —

أدرك الأمر والدها ، ورأى فى فتاته ميلاً إليه قد ينتهى بالزواج . فأحب أن يحول بينهما ، فصرف « شوبير » صرفاً أدبياً ليعود إلى عزلته الأولى . وشوبير فى كل غيبته لم يذكر « إيمى » بكتاب . لأن كفة « كارولين » رجحت على كفتها . فلم تستقبله « إيمى » ولكنها سمعت أنه يكاد يغدو مجنوناً . وهو فى كل يوم يرتقب كتاباً من « كارولين » وها قد دب اليأس فى نفسه بعد انتظار ثلاثة أشهر ، وها قد أشفقت « إيمى » عليه فهرعت إليه بدون إرادة ولا عزيمة . . . . وفى لحظة حضورها وردت عليه بطاقة من القصر تأمره بالحضور العاجل . فما قابل « إيمى » إلا ليودعها وتودعه

ـ إيمى ! كونى سعيدة إننى مسافر ، سوف أبعث إليك بأنبائى

انطلق « شوبير » ولا يعرف ما كُتب له . فشاهد فى القرية حالة غير معهودة ؛ أجراس تدق ، وثياب بيضاء ترف . وأغانٍ تتعالى . إنه عرس « كارولين » أجئتَ يا شوبير لتودع كارولين ؟

لم يكن صاحب البطاقة المرسلة إلا « ماريا » أخت « كارولين » دعت « شوبير » ليحضر حفلة زفاف أختها . وليصفح عنها لأنها كفّرت عن وزرها بالبكاء الطويل ، ولكنها أذعنت لوالدها مضطرة غير مختارة . . . وقد وقف « شوبير » بين الجموع يشهد سرورها أمامه

وقفت « ماريا » فجأة بين جموع المهنئين فى بهو القصر ، تعلن أن « شوبير » يريد أن يهنئ العروسين « فدخل شوبير وقد رنت العيون إليه ، ومشى حتى بلغ موقف « كارولين » وقال لها : « يا سيدتى ! هل تتفضلين بأن أقدم تتمة اللحن الذى لم يتم تقدمة لك فى يوم عرسك ؟ » واختلف إلى البيان يردد اللحن الأول « وكارولين » بين الجموع تنتفض طوراً وتختلج تارة تحت تأثير الذكريات الخافية حولها . تفيض على قلبها مرارة ، وعلى محجريها تطفح دمعتان . وما كاد ينتقل « شوبير » إلى تتمة للقطع ، وقد اختلفت النغمة ، وامتزج الجلال بالجمال ، ونطقت العاطفة ، وغلب القلب على الأنامل ، حتى سقطت « كارولين » مستغرقة فى البكاء فى الموقع الذى قاطعت شوبير بضحكها . فانفض الجمع وأخذوا المريضة . وشوبير مُسمَّر فى مكانه لا يتزحزح . وبعد برهة عاد إليه زوجها يقول له : « إنها تحسنت قليلا وتود أن تقابلك » . عادت كارولين ووجهها مقنع بكل ما رسمت على وجهها الحياة منذ طفولتها حتى الساعة . فالآمال مجاورة للآلام . واليأس مؤتلف مع القنوط : إنه وجه حياة كاملة

ـ شوبير ! هذه مقطوعتك أرسلها إلىّ

ـ ولِمَه ؟ إنها مكتوبة للجميع

ـ عش سعيداً يا شوبير ! ولا تحزن . إنك تملك شيئاً هو اسمى من كل شىء . . . هو الفن الذى يعطيك الخلود

طفرت من عينها دمعة ، وانصرفت راكضة لأنها لا تستطيع أن تقف أمام هذه السحابة الجارفة التى يسوقها فن عميق سام جارف

عاد « شوبير » إلى لحنــه ، فأبقى ماعزفه ، ومزق تتمة اللحن ، وكتب حول ما مزقه : « ليكون دليلاً على حبي الذى لا ينتهى ، جعلتُه لحناً لا ينتهى » . وخرج « شوبير » يسلك الطريق الذى أبصر أحلامه الواثبة ، والآن يبصر نفسه المكتئبة ؛ وما زال يتقفى به السير حتى وقف على تمثال « مريم العذراء » وهنالك تمازج كل ماتيه من عوامل متضادة ، من يأس ورجاء . من غبطة وكآبة ، وفن ومثل أسمى ، لتؤلف هـذه العوامل «أنشودة السلام الملائكى» التى خلدت شوبير فى عالم الموسيقى ..

« السلام الملائكى [1] »

سلام عليك يا مريم ! يا ملكة السماء
إليك ترتفع صلاتى ، وأرى العطف فى عينيك
وفيك أيتها الطاهرة أضع رجائى

* * *

ولدى كان يخفف بؤسى ، ومعزى فاقتى
إنه تألم ، وا أسفاه ، إنه قضى
افهمى دموعى أنتِ ، يامن كنتِ أماً
وأعيدى إلىّ طفلى البائس . . .

* * *

سلام عليك يامريم ! إن ولدى جميل
كنتُ به مختالة معجبة . . .
باركى سريره الصغير . . .
إنه كان خيرى ، بل خيرى الوحيد

* * *

إذا أصابنى الله فى غضبه
فاعطفى أنتِ على الصغير البرئ
واستجيبى لى . . . إننى أم
تطلب للموت فى سبيل ولدها

* * *

سلام عليك يامريم
أرى طفلى وُلد ثانية بالصلاة
كأنه الزهرة العاطرة ، والمنحة الجميلة ،
والجمال الجذاب ، والسر المقدس ،
انظرى إلىّ ! أنت ياموضع أملى !

ولدى ! إن جبينك ليسطع نوراً . . .
شكراً لك أيتها الأم الآلهية
أنتِ التى أنقذتِ ولدى
سلام عليكِ يا مريم . . .

* * *

هى مقطوعة تناجى بها أم ثكلى « مريمَ » وتبثها شكواها . وقد برح بها الحزن وأمضها الألم . والآن تغلق قلبها المفتوح وتطوى ألمها المنشور ، وتحس براحة نفسية ، تصافح الألم فلا تراه شائكاً ، بل هى الآن أوسع صدراً للألم لأنه لا يعانى على إعيائها . وقد تكون هذه الفكرة فكرة فنان شاعر يناجى مثله الأعلى الذى وجد فيــه أمله الأسمى . فهو يحمل نفسه الجرّحة يريد أن يلقى لها منزلاً تنزل فيه ، فيجد الأبواب كلها مسدودة ، وها هو ذا الآن على طريق المثل الأعلى الذى سلخه عن الوجود

قد تلاشى الحب فى « شوبير » وانطفأت جذوته الملتهبة ، وابتعدت ذكرياته المذبة . لا لأن شوبير محب كاذب يسهل عليه الاتصال والانفصال . ولكن شوبير قلبه قلب فنان ، وقلب الفنان كبير ، قد ارتسمت – على قلبه – كل أشواقه الماضية ، وآلامه الغابرة وسرت معــه لتؤلف « ذلك المثل الأعلى » بغنه الذى – كما قالت كارولين – إنه وحده يعطيه الخلود

وقد يتساءل القارئُ : أما وقد عاد شوبير خائباً ، فكيف التقت به « إيمى » فتاته الأولى ؟ بقيت نقطة غامضة لم يعالجها المخرج ليترك المثل الأعلى منتصراً على كل شىء

— ٥ —

قد لا تروق هذه النتيجة للبعض ، لأنهم يتلقونها بعقولهم ، وعقولهم لا يرضيها شىء من غذاء العاطفة ، ولا تقبل إلا ما فيه غذاء لمنطقها ، ولا يغذى منطقها إلا عالم الواقع الملموس . . . ولكن فاتهم أن هذا العالم الواقعى قد بدأت تطفو عليه عوامل الاضمحلال لأنهم تناولوا فيــه كل مثل ، سواء ذلك المثل الذى يوحيه الفن أو يوحيه الشعر

لا يحمل الناس من هذه الوهدة التى نزلوا فيها وهذه المادية التى استغرقوا فيها إلا الايمان بالمثل الأعلى فهل نرى – السينما ! – تقف يوماً أمام الفن والشعر جنباً لجنب ، لتؤدى ماعليها من التبشير بهذا « المثل الأعلى » ؟

خليل الشرارى

(1) هى أغنية – كما يتضح – تناجى بها أم ثكلى « مريم العذراء » وهى معهورة بين الألحان الكنائسية